جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة – الجزائر
ISSN: 1112-4377, EISSN: 2588-2384
المجلد: 29 العدد 2. السنة 2025
مجلة المعيار
EL MIEYAR

التكامل المعرفي بين علوم الحديث وعلوم اللغة العربية من خلال الشرح الحديثي عند الإمام ابن القيم وأثره في فقه الحديث من خلال كتابه تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته.

The integration of knowledge between the science of Hadith and Arabiclanguage sciences according to Imam Ibn al-Qayyim and its impact on Hadith criticism and understanding through the book « Tahdib Sunan Abi Dawud».

آمنة زعوني [1]
a.zaouni@univ-alger.dz

أ.د محمد عبد النبي [2]
ab-yasser@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/10/06 تاريخ القبول: 2025/02/12 تاريخ النشر: 2025/03/22
Received: 06/10/2024 Accepted: 12/02/2025 published: 22/03/2025

ملخص المقال :

يتناول هذا البحث دراسة توظيف الإمام ابن القيم لعلوم اللغة العربية في نقد الأحاديث وفهمها من خلال كتابه تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، حيث يهدف إلى بيان أثر التكامل المنهجي بين هذين العِلمين، وبيان صور هذا التكامل.

كلمات مفتاحية: التكامل المعرفي، ابن القيم، اللغة العربية، بلاغة الحديث.

Abstract:

This article examines Imam al-Qyyim's approach in combining the science of Hadith with Arabic language sciences focusing on its applications in « Tahdib Sunan Abi Dawud ». The article aims to highlight the importanceof this integration in critiquing and understanding hadith.

Keywords: cognitive integration; Ibn-alQayyim; Arabic languige; the eloquence of speech.

(1) جامعة الجزائر 1 بن يوسف بن خدة (الجزائر)
(2) جامعة الجزائر 1 بن يوسف بن خدة (الجزائر)

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه ونستغفره، والصلاة والسلام على أشرف الخلق نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

يُعَدُّ المدخل التكاملي مدخلا أساسيا في مجالات المعرفة الإنسانية المختلفة، وقد اهتمت النظريات المعاصرة بهذا المبدأ في مقابل النظرة التجزيئية، وكان على رأس العلوم المعنية بهذه النظريات العلوم الإنسانية التي من ضمنها علوم الشريعة. هذه الأخيرة أدرك علماؤها منذ القدم أهمية التكامل المعرفي فيها، فكان العالم قديما لا يحوز على منصب الفتيا أو القضاء أو غير ذلك من المناصب العلمية إلا إذا كان ملما بأنواع العلوم الشرعية المختلفة. أضف إلى ذلك أن العلوم الإسلامية قد قُسمت إلى علوم غاية وعلوم آلة وهي العلوم المساعدة على فهم نصوص الشرعية حيث عمل العلماء المسلمون على عدم تحييد أي علم في سبيل الاستنباط السليم للأحكام الشرعية عقائديا وفقهيا وسلوكيا.

وفي علم الحديث بالإضافة إلى الجانب النقدي الذي جمع بين نقد الإسناد والمتن معا، تجلت النظرة التكاملية الشمولية من خلال فقه الحديث أيضا، ففي إطار سعي المحدثين لفهم النصوص الحديثية وتفسيرها في باب الشرح الحديثي، يلحظ اعتمادهم على علوم بينية مختلفة كان من أبرزها علوم اللغة العربية، التي برز توظيفها لدى أغلب شراح الحديث، وكان من بين من عني باستعمالها الإمام ابن القيم في كتابه تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته في مواضع عديدة، وهذا ما يقودنا إلى البحث والإجابة عن إشكالية أساسية تتمثل في: ما هو أثر إعمال التكامل المنهجي بين علوم الحديث وعلم اللغة العربية عند الإمام ابن القيم في كتابه تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته؟ كيف وظف الإمام ابن القيم معارفه اللغوية في فهم الأحاديث وشرحها وما هي أبرز مجالات هذا التكامل؟ وما هو أثر هذا التكامل على فهم الأحاديث النبوية والاحتجاج بها؟ كيف يمكن الاستفادة من الدراسات التكاملية في تطوير الدراسات الحديثية المعاصرة؟

وللإجابة على الإشكالية نقوم بوضع الفرضيات التالية:

- يؤدي التكامل بين علم الحديث وعلوم اللغة العربية إلى فهم أدق وأعمق لمعاني الحديث النبوي
- يساعد التكامل المنهجي بين علمي الحديث واللغة في حل إشكالات تعارض ظواهر النصوص الحديثية
- يؤدي استخدام الأدوات البلاغية في دراسة الأحاديث إلى استنباط أحكام فقهية أكثر دقة

ويهدف هذا البحث إلى دراسة منهجية الإمام ابن القيم في توظيف معارفه اللغوية في الجمع بين علم الحديث وعلوم اللغة العربية، وتحليل أثر هذه المنهجية التكاملية في شرح الأحاديث وفقهها، وذلك بالتركيز على كتابه تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته.

وتكمن أهمية هذا الموضوع في تعزيز الدراسات البينية في العلوم الإسلامية، وذلك لإبراز الدور الحيوي الذي تلعبه اللغة العربية في نقد الأحاديث وفهمها، وتسليط الضوء على عناية كتب الشروح الحديثية والتي من بينها كتاب تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته بمنهجية التكامل بين العلوم وعلى رأسها اللغة العربية، في سبيل الوصول إلى شرح وفهم دقيق لمعاني الحديث النبوي. بالإضافة إلى إبراز دور التحليل اللغوي في استنباط الأحكام الشرعية، ولإبراز هذه الأهمية وضعت خطة كالآتي:

1-التكامل المعرفي في العلوم الإسلامية: مع تحديد مفهوم تكامل المعرفة وأهميته في العلوم الإسلامية. مع بيان أنواع العلوم الإسلامية التي تجسد فيها تكامل المعرفة.

2- التكامل المعرفي في بين علوم الحديث وعلوم اللغة العربية وأثره في نقد وفهم الأحاديث عند الإمام ابن القيم: وذلك من خلال كتب الشرح الحديثي وملامح منهج المحدثين في العمل بالتكامل المعرفي فيها، وإيضاح صور التكامل المعرفي بين علم الحديث وعلم اللغة العربية عند الإمام ابن القيم من خلال كتاب تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته.

وفيما يتعلق بمنهج البحث المستعمل فقائم على المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج الاستقرائي لأقوال الإمام ابن القيم في هذا الموضوع.

التكامل المعرفي في العلوم الإسلامية

1.1. مفهوم تكامل المعرفة

1.1.1 لغة:

-التكامل: «من كمَلَ الشيء يكمُل كمالاً ، والكمال: التمام الذي يجزأ منه أجزاؤه. تقول لك نصفه وبعضه وكماله. وأكملت الشيء أجملته وأتممته» (الفراهيدي، صفحة 378) «وهو إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، وهو أخص من العلم، ويضاده الإنكار.» (الأصفهاني:، 1412هـ، صفحة 560)

1.1.1. اصطلاحا:

يعرف كمركب مزجي بأنه: «التصور الشامل للعلم أو الموضوع المراد دراسته بناء على الإلمام بعلوم متعددة دون الاقتصار على الاختصاص الدقيق، واستنادا إلى وجود علاقة مترابطة متداخلة بين جزئيات تلك المعرفة وبين بقية العلوم والحقول المعرفية الأخرى.»

والتكامل المعرفي في المفهوم الإسلامي: «هو ذلك الإدراك التام الواعي للحقائق المتصلة بالوجود الإلهي والكوني والإنساني، وما ينتظم به من سنن، وما ينشأ عنه من علوم ومعارف، تظهر به الآثار العملية والجمالية للمعرفة في ربطها أجزاء ذلك الوجود وانتظام علاقاته وفق هداية الوحي.» (الدغامين، التكامل المعرفي في القرآن الكريم، 1434هـ)

2.1 أهمية التكامل المعرفي في العلوم الإسلامية

يعد المدخل التكاملي أسلوبا مهما لتنظيم المعارف وترتيبها ترتيبا دقيقا من خلال تحقيق الترابط بين مختلف العلوم ففي العلوم الإسلامية نجد الانسجام والاتساق بين مختلف العلوم الشرعية من خلال وحدة مصدر المعرفة المتمثل في الوحي

من عند الله عز وجل، ووحدة الغاية المتمثلة في الوصول إلى تعبد الله أحسن عبادة وتحقيق مفهوم الاستخلاف في الأرض. فتحقيق الإعمار لا يكون دون فهم حقيقة الكون، وغاية الإنسان فيه فإعماره ليس قاصرا على الشعائر التعبدية أو ما يشمل مظاهر العبادة المعنوية، وليس قاصرا على مظاهر الإعمار المادي، من خلال تحقيق التناغم بين الكون والإنسان. (الدغامين، 1434هـ)

كما يؤدي التكامل المنهجي إلى تحقيق فهم صحيح لنصوص الوحي من خلال إدراك مراد الله من خطابه على نحو سديد ، وذلك بإعمال كافة حقول ومجالات العلوم الإسلامية من علم تفسير وعلم حديث وعلم فقه وكذا استخدام لمصادر وأدوات منهجية مثل علم أصول الفقه والمقاصد وعلم اللغة وغير ذلك.

بالإضافة إلى أنه يعمل على إلغاء الفواصل المنهجية بين علوم الشرع وصبها في بوتقة واحدة مما يجعل النتائج المتوصل إليها نتائج ذات بُعد موضوعي وحكمي أكثر أصحية.

وعن طريقه يتم تحقيق التصور السليم للمعرفة الشرعية من خلال الإدراك الكلي الشمولي للحقائق العلمية الشرعية نتيجة استثمار أنواع علوم الشرع وعدم اختزال البحث العلمي في تخصص دقيق مما يؤدي إلى نتائج أكثر دقة وثباتا. وقد لعب التكامل المعرفي بين علوم الشريعة تاريخيا دورا مهما أدى إلى تحقيق إشعاع حضاري للمسلمين وتحقيق تقدم وازدهار علمي حضاري دام لقرون.

3.1 أنواع العلوم الإسلامية التي تجسد فيها تكامل المعرفة

إذا كان عصرنا الحالي عصر بروز التخصص الدقيق في شتى المجالات والتي من بينها علوم الشريعة، والذي تولد عنه سلبيات أهمها تشتت المعرفة نتيجة الفصل الشديد بين التخصصات، فإن العصور الماضية عرفت وحدة المعرفة والتكامل بين العلوم وعلى رأسها العلوم الإسلامية التي تجسد فيها التكامل المعرفي خاصة في القرون الذهبية الأولى، «فالعلاقة بين العلوم في السياق المعرفي في الإسلام ليست علاقة تراتبية فحسب، بل هي علاقة في حقيقتها تفاعلية تأثرية وتأثيرية تتراحب فتترابح» (سعيد م.، 1432هـ) وقد ارتكز هذا التكامل على أساسين:

التكامل بين علوم الشريعة ككل: حيث تبلورت علوم الشريعة نتيجة التفاعل مع الوحي متمثلا في القرآن والسنة النبوية وأدت إلى إعطاء تصور حول نظرة الشريعة للعالم والحياة والإنسان والغاية من الوجود. «فأصبحت العلوم الإسلامية كتلة واحدة يخدم كل علم فيها الآخر ويُكَمِّله، مع التفريق بين التكامل المعرفي في مرحلة التحصيل والتلقي، وبين التفرغ لعلم واحد يبذل فيه الوسع والجهد، مما يؤدي إلى استيعاب أكبر وإتقان أكثر في التعليم والتصنيف.» (حسين، 1433هـ)

فيلاحظ أن علم الفقه وأصوله قد برزت فيه معالم التكامل المعرفي من نواحي عديدة، إذ من خلال مبحث الحكم الشرعي وقواعد استنباط الأحكام ينتج الفقه، وتتجسد علاقته مع علم الحديث من خلال مبحث السنة النبوية وأقسامها وما يدل على الأحكام منها، كما أن التكامل مع اللغة العربية يبدو بوضوح من خلال مبحث الألفاظ ومبحث الدلالات. بالإضافة إلى أن الأصولي بحاجة للبلاغي «من أجل السعي لتجاوز مستوى الكشف عن المعاني الحكمية

وتبيينها إلى مستوى تفعيلها في الإنسان لتتولد منه حركة تعميرية للوجود الإنساني في ذاته وعلاقته بالكون والحياة وعلاقته بالله وهي الغاية الكبرى. فالعقل البلاغي قادر على أن يمنح الأصولي القدرة على استنباط من بيان الوحي ما هو مكنون معرفي وتهذيبي في الآن نفسه والعقل الأصولي قادر على أن يمنح العقل البلاغي مزيدا من الموضوعية في إنتاج المعنى، واستثمار المعرفة.» (سعيد م.، 1432هـ)[3]

وبالتالي يمكن أن يمثل علم الأصول تجسيدا كاملا لقضية التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية الشرعية على اعتبار أنه من العلوم البينية بمعنى أنه تضمن علوما أخرى والتصقت به فاحتواها بحسب منهجيته ورؤيته المعرفية ، كما أنه عبارة عن قواعد منهجية استدلالية لضبط عملية الفهم والاستنباط. فتتجاوز المجال الفقهي لتعمل في نطاق واسع في إطار بلورة النظرة المنهجية في حقول معرفية متعددة ومتنوعة (عوام، 1430هـ)

وفي علم التفسير استعان المفسرون بعلوم اللغة العربية المختلفة من نحو وصرف وبلاغة لبيان معاني القرآن الكريم، كما أنهم استعانوا بعلم الفقه في استنباط الأحكام الشرعية وظهر ذلك من خلال التفسير الفقهي، واعتمدوا على رواية الآثار والأحاديث بالأسانيد كما يظهر ذلك جليا في التفسير بالمأثور الذي من أشهر مصنفاته تفسير الإمام الطبري، كما أن ظهور التفسير الموضوعي في العصر الحديث ساهم في بناء النظرة التكاملية للعملية التفسيرية من خلال النظر إلى الآيات ذات الموضوع الواحد نظرة كلية ومن خلال الاستعانة بالعلوم المختلفة حتى تلك الخارجة عن دائرة العلوم الشرعية.

أما في علم الحديث فيظهر التكامل المعرفي مع علم التفسير في نواحي عديدة إذ أن الكثير من المحدثين كانوا مفسرين كالإمام الطبري والإمام ابن كثير الدمشقي، وقد كانت كتبهم طافحة بالآثار المروية على طريقة المحدثين، أما في ميدان الفقه وأصوله فقد كانت نصوص الحديث النبوي ميدان استنباط الأحكام الشرعية ومحط نظر الفقيه الذي يعمل فيها عقله مستخدما أدواته المنهجية في فهمها واستخراج الأحكام الفقهية منها، وقد عاب الإمام الخطابي على بعض المحدثين ممن أهملوا فقه متون الأحاديث وبعض الفقهاء الذين لا يعرجون على الأحاديث ولا يميزون بين صحيح الأحاديث من سقيمها وبين أن الحديث بمثابة الأساس الذي هو الأصل وبين الفقه الذي هو البناء الذي يمثل الفرع مبينا أن كتاب سنن أبي داود أفضل مصنف يتجلى فيه الجمع بين الآثار وفقهها (الخطابي، معالم السنن، 1433هـ)كما يلمس التكامل المنهجي بين علم الحديث والفقه وأصوله في ميدان مصطلح الحديث حيث يلاحظ تأثر متأخري المحدثين بطريقة الأصوليين في التقعيد قواعد علم الحديث.كما تتجلى النظرة التكاملية مع علم التاريخ في علم الطبقات وعلم الرجال حيث يتقاطع مع علم التاريخ في الكثير من المواطن، سواء من حيث النقد الداخلي أو النقد الخارجي للحديث النبوي وقد أثر علم الحديث في علم التاريخ على صعيد المستويين كليهما.

– التكامل المعرفي ضمن العلم الواحد:

[3] محمود توفيق محمد سعيد: مرجع سابق، ص22/21.

أيقن العلماء المسلمون أن التخصص ضروري في علم من العلوم مع التحصيل التكاملي القاعدي المستمد من التركيز على علوم القرآن والسنة، وبعدها يأتي التخصص المرغوب فيه من طالب العلم. وذلك انطلاقا من التكامل المعرفي في التحصيل ، التكامل المعرفي في التأليف، التكامل المعرفي في التقويم، التكامل المعرفي في المنهج، التكامل المعرفي على مستوى الأفراد والجماعات (حسين، 1433هـ)

ففي علم التفسير تظهر النظرة التكاملية من خلال اطلاع المفسر على جملة من العلوم المتعلقة بالقرآن وتفسيره وذلك من خلال التعرف على ما ورد حول الآية من أسباب النزول وكذا القراءات الواردة فيها وكيفية توجيهها للوصول إلى المعاني التي تحملها الآية، وكذا ما يسمى بعلم المناسبات حيث ينظر إلى علاقة الآية بما قبلها وبما بعدها وكذا بالنسبة إلى السورة القرآنية وعلاقتها بالسورة التي قبلها والتي بعدها، وفي العصر الحديث ظهر التفسير الموضوعي والذي تتجسد فيه النظرة التكاملية بشكل كبير إذ يبحث في موضوع السورة أو من خلال تجميع الآيات المتعلقة بموضوع معين والنظرة إليها نظرة موحدة واستنباط المعاني والحِكم المتعلقة بها.

وفي علم الحديث يظهر التكامل المنهجي داخله من خلال المنهجية العلمية للعملية النقدية القائمة على دراسة الإسناد دراسة شاملة قائمة على نقد سلسة رواة الإسناد للتأكد من وثاقة الرواة ومن حيث تحقق الاتصال بين الرواة وعدم وجوب الانقطاع، وعلى نقد المتن من خلال التأكد من ثبوت ألفاظ الحديث وخلوها من الزيادة والإدراج وكذا فقه كما تبرز النظرة التكاملية في علم الحديث من خلال ما ضبطه المحدثون من شروط للحديث الصحيح، والتي تجمع بين ثلاثة أركان متكاملة: وثاقة الرواة واتصال الإسناد والخلو من الشذوذ والعلة. كما أن عملية شرح الأحاديث عملية متكاملة تستند إلى جانب الإسناد وكذا المتن، بالإضافة إلى الشرح الموضوعي الذي ظهر في هذا العصر والذي زاد من متانة العملية التكاملية في علم الحديث، وذلك من خلال النظر إلى الحديث من كافة الجوانب النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية واستنباط الأحكام التي تخص جميع جوانب حياة المؤمن.

وفي الفقه وأصوله يبرز الفقه المقارن كأحد أوجه النظرة التكاملية في الفقه من خلال دراسة آراء المذاهب حول المسألة الفقهية، ويظهر التكامل أيضا في الفقه من خلال الكليات الفقهية وكذا كليات مقاصد الشريعة.

التكامل المعرفي في بين علوم الحديث وعلوم اللغة العربية و أثره في نقد وفهم الأحاديث عند الإمام ابن القيم.

1.2 كتب الشرح الحديثي وملامح منهج المحدثين في العمل بالتكامل المعرفي فيها.

يظهر عمل المحدثين بالتكامل المعرفي من خلال عدة مستويات، فعلى مستوى التأليف يلاحظ أن منهجية التأليف لا تقتصر على الأبواب الفقهية إنما تضم إليها أبواب العقيدة والسلوك والأخلاق والسير والتراجم والتفسير، كما أن منهج الإمام مسلم في جامعه قائم على جمع الأحاديث ذات الموضوع الواحد في موضع واحد لتكون رؤية كلية للحديث، مع

ذلك لا تخلو مصنفات بعض المحدثين من إفراد أجزاء حديثية في باب معين. أما على مستوى النقد الحديثي فكما سبق بيانه يظهر عمل المحدثين بتلك النظرة الكلية للحديث من حيث الجرح والتعديل ومن حيث البحث والتنقيب عن علل الحديث. وفي باب مشكل الحديث ومختلفه تظهر المنهجية التكاملية من خلال عرض الأحاديث على بعضها البعض، وعن طريق منهج الترجيح من خلال مسلك الجمع بين الأحاديث.

هذا بالنسبة لعمل المحدثين بشكل عام بالتكامل المعرفي وعدم إهماله على مستوى نقد الحديث من جهة الثبوت، أما بخصوص إعمالهم للتكامل من جهة الفهم فيظهر على مستوى الشرح الحديثي، وذلك من خلال استعانة الشارح بعلوم متعددة على رأسها علمي الفقه وأصول الفقه، وعلوم اللغة العربية. فعلى مستوى الفقه يعرض الشارح المذاهب الفقهية للمسألة الواردة في نص الحديث، سواء بذكر المذاهب الموافقة لما جاء في الحديث المشروح أو المعارضة له كما يفعل الإمام ابن القيم في كتابه تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته ويناقش مدى توافقها مع دلالات نص الحديث أو مخالفتها له (الجوزية، 1437هـ)، مع مراعاته لقواعد الاستدلال وأصول الاستنباط، أو يكتفي بالتأصيل لمذهب فقهي واحد انطلاقا من النص المشروح. بالإضافة إلى الاستفادة من قواعد الأصوليين وضوابطهم في الاستدلال ويعنى كذلك بعض الشراح بالجانب المقاصدي وإبراز محاسن الشريعة وعنايتها بمصالح العباد كما يلحظ ذلك عند الإمام ابن القيم في كتابه التهذيب (الجوزية، 1437هـ). وفي العصر الحديث يبرز التكامل المعرفي في الشرح الموضوعي الذي يكون بجمع الأحاديث ذات الصلة بموضوع واحد ودراسته من كافة نواحيه، للوصول إلى تصور كلي للهدي النبوي في الموضوع المدروس.

ويعد المستوى اللغوي مدخلا أساسيا يستعين به الشارح لفهم النص الحديثي وتحليله، وذلك من خلال بيان معاني ألفاظ وعبارات الحديث النبوي الشريف، من خلال علم غريب الحديث الذي يجمل الإمام الخطابي أهميته في فهم الحديث النبوي في السلامة من التصحيف وسوء التأويل: وذلك لأن فيما يرد من الحديث ألفاظا كثيرة متشابهة في الصورة والخط، متنافية في المعنى والحكم، فحق على طالب الحديث أن يرفق في تأمل مواضع الكلام ويحسن التأني لمحنة اللفظ ، ومعرفة ما يليق به من المعنى ليستوضح به قصده، ويصيب جهته (الخطابي، غريب الحديث، 1402هـ) ، فالشارح للحديث النبوي يعمل على معرفة دلالات الألفاظ من خلال دراسة المشترك اللفظي والفروق اللغوية كما عند الإمام ابن حجر في الفتح وهذا ما يعرف في اللغة العربية بعلم الدلالة. أما علم النحو فهو الآخر مساحة مهمة يستعملها المحدث في عملية شرحه للأحاديث حيث يضبط حركات ألفاظ الحديث وبالتالي يكون المحل الإعرابي لألفاظ الحديث مبنيا ومبينا للحكم الفقهي في الكثير من الحالات. بالإضافة إلى المستوى البلاغي الذي عن طريقه يتم الكشف عن جماليات التعبير النبوي وملاءمة الألفاظ للمعاني المقصودة في نص الحديث. وبالنظر في نظرية السياق في الدرس اللغوي يتجسد مستوى آخر من التكامل بين الشرح الحديثي واللغة العربية، إذ لا يمكن فهم الحديث النبوي بمعزل عن سياقه اللغوي الذي يكون من خلال النظر في أسباب ورود الحديث ومعرفة الظروف المحيطة بقوله ونوع المخاطبين به. وعلى صعيد آخر يعد تحليل أساليب الخطاب

النبوي كبيان أنواع الأساليب الخبرية والإنشائية وأساليب التقديم والتأخير مجالا آخر يتكامل فيه الشرح الحديثي مع اللغة العربية للوصول إلى فهم مقاصد وغايات اللفظ النبوي وهو ما تهتم به النظريات الأدبية المعاصرة.

2.2 صور التكامل المعرفي بين علم الحديث وعلم اللغة العربية عند الإمام ابن القيم من خلال كتاب تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته.

عُني الإمام ابن القيم خلال عملية نقد الأحاديث في كتاب تهذيب سنن أبي داود بالربط بين نقد الأسانيد وبيان عللها، والتحليل الفقهي لمتونها انطلاقا من إبراز الآراء الفقهية وإطالة النفس في ذكر حجج كل فريق الأصولية والفقهية،

وقد برز اهتمام الإمام ابن القيم باللغة العربية في تحليله مضمون للأحاديث من خلال، حيث يظهر بشكل واضح في مواضع عديدة أثر ذلك في توجيه الأقوال الفقهية وترجيحها بالإضافة إلى نقد الروايات ورد بعض الألفاظ، وفيما يلي صور توظيف اللغة العربية في شرح الاحاديث وبيان أثر ذلك:

1.2.2 الاهتمام ببيان جوانب بلاغية في الحديث:

-أسلوب الحصر: لزوم حصر المبتدأ في الخبر

في حديث مفتاحها الطهور (السجستاني س.، سنن أبي داود، باب فرض الوضوء، رقم: 61) يبين الإمام ابن القيم أن الخبر يعم جميع أفراد المبتدأ في حالة كونه معرفا بأل التعريف أو بقية صيغ العموم ك"كل" وبالتالي لزوم أن يكون المبتدأ محصورا في الخبر وعليه لا فرد من أفراد ما يفتتح به الصلاة إلا وهو الطهور.

ومنه يستنبط حكم فقهي من أسلوب الحصر أنه لا يمكن الدخول في الصلاة إلا بالطهور. فبواسطة النظر في الجانب البلاغي للحديث استفيد حكم فقهي محدد ألا وهو وجوب الطهارة للصلاة.

-التعريف والتنكير في صيغة التفضيل :

في معرض رده على تجويز الشافعية لفظ الله الأكبر (السجستاني س.، سنن أبي داود، باب فرض الوضوء، رقم: 61) في افتتاح الصلاة يرى الإمام ابن القيم أن زيادة الألف واللام في لفظة الله الأكبر تضمنت زيادة في اللفظ ونقصا في المعنى، إذ أن هذه الزيادة تفيد تقييد المعنى وتخصيصه وتستعمل في المفاضلة بين شيئين بخلاف لفظة الله أكبر التي تفيد التعميم ، ذلك أن أفعل التفضيل في اللغة إذا جاءت على صيغة التنكير تكون متضمنة عموم المفضل وإطلاقه، وهذا لا يتأتى مع إضافة لام التعريف. (الجوزية، تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، 1437هـ)

وبالتالي لا يتعين إلا لفظ الله أكبر في افتتاح الصلاة لأنه اللفظ الدال على صفة من صفات الله وهي أنه لا شيء أكبر من الله. ترجيح معنى على معنى وبالتالي حكم على آخر ألا وهو تعين قول الله أكبر فقط في افتتاح الصلاة ولا يصح قول الله الكبير. ومن ثمَّ استنباط حكم فقهي وجوب افتتاح الصلاة بلفظة التكبير على صيغة واحدة وهي الله أكبر.

-الحقيقة والمجاز

بين الإمام ابن القيم شروط العدول عن الحقيقة إلى المعنى المجازي في حديث " والخال وارث من لاوارث له" (السجستاني س.، سنن أبي داود، باب في ميراث ذوي الأرحام، رقم: 2899) (، متمثلة في:

قيام دليل على امتناع إرادتها: وذلك بوجود دليل قطعي يمنع من حمل النص على معناه الحقيقي الحرفي.

بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي عينه مجازا له: يجب أن يكون اللفظ قابلا للتأويل على المعنى المجازي الذي أراده الشرع.

بيان استعماله في اللغة: حيث يكون المعنى الذي أراد حمله عليه يصح من الناحية اللغوية.

الجواب عن المعارض وهو دليل إرادة الحقيقة: بأن تكون لديه ردود مؤسسة على القول الذي يرى إرادة المعنى الحقيقي.

ولا يكفيه دليل امتناع إرادتها ما لم يجب عن دليل الإرادة :

ويبين أن هذه الشروط بتطبيقها على تفسير الخال بالسلطان في الحديث لا تصح، وبالتالي فلا يحمل على المعنى المجازي، مؤكدا على ضرورة فهم النص بشكل جيد قبل حمله على المعنى المجازي. (الجوزية، 1437هـ) وعليه فإن الحكم بتوريث الخال ثابت ولا يمكن صرف معنى لفظ – اختار وضع ماله فيه– على معنى الطعمة.

–التوكيد اللفظي

يذكر الإمام ابن القيم أن من معاني تكرار لفظ التلبية هو الإيذان بتكرار الإجابة انطلاقا من المعنى اللغوي لها إجابة لك بعد إجابة. كما يؤكد أن تكرار الشهادة له أنه لاشريك له بعد التلبية وعقب قوله إن الحمد والنعمة لك والملك، بيان أنه لاشريك له في إجابة دعوة التلبية ولا شريك له في الحمد والنعمة والملك. (الجوزية، 1437هـ)

2.2.2 الاهتمام ببيان معاني غريب الحديث :

أولى الإمام ابن القيم اهتماما بشرح غريب الحديث بشكل صحيح وتوجيه معاني الكلمات وترجيح حكم فقهي على آخر انطلاقا من ذلك حتى يكون هنالك فهم للحديث النبوي، وتستنبط دلالات الألفاظ بدقة ومن ثمَّ الأحكام الشرعية.

–لفظة لبيك اللهم لبيك

بعد بيان معاني التلبية اللغوية يربط الإمام ابن القيم بين هذه المعاني وما يستنبط منها حكم ومقاصد للتلبية. ففي معنى لب الشيء وخالصه، يستنبط من التلبية معنى الإخلاص التام لله تعالى، وفي معنى الإقامة تتضمن معنى دوام الإقامة وفي معنى الإلباب معنى التقرب، يستفاد معنى التقرب إلى الله تعالى، إلى غير ذلك من المعاني التي استنبطها الإمام ابن القيم. (الجوزية، 1437هـ)

–بيان معنى الحلة:

بنى الإمام ابن القيم حكم تحريم لبس المعصفر بناء على أحاديث تحريم لبسها، ورد تفسير لفظة الحلة في حديث البراء أنها الثوب الذي لونه أحمر المشبع حمرة، وإنما الحلة هي نوع من الثياب الذي يختلط فيه اللون الأسود مع الأحمر، وبالتالي فالثوب الأحمر الخالص لا يجوز لبسه، وأن المرخص فيه هو للثوب المخطط باللون الأحمر وغيره من الألوان. فالحكم بالجواز خاص بالثوب المخطط باللون الأحمر ولا يعم كل ثوب أحمر. (الجوزية، 1437هـ)

-بيان معنى الإحصار:

يقرر الإمام ابن القيم أنه لا فرق بين لفظة الحصر التي تعني المنع والحبس ولفظة الإحصار التي تعني المرض، ويبني عليه الحكم الفقهي فيمن منع من دخول مكة بسبب مرض هل يأخذ نفس حكم المحصر بسبب العدو في التحلل، فالذي حبس بسبب مرض حكمه كحكم المحصر بسبب عدو يجوز له التحلل من إحرامه.

-لفظة الرفاه:

يبين الإمام ابن القيم جذر لفظة الرفاه الواردة في حديث التهنئة بالزواج (السجستاني س.، سنن أبي داود، باب ما يقال للمتزوج، رقم: 2130) وأصل صياغتها اللغوية ويربطه بالمعاني اللغوية للفظ ، فبتحقيق الألف على صيغة رفأ المخففة إلى رفا يكون المعنى الموافقة والملاءمة، أما إذا كان معتل الذي أصله الواو، بمعنى السكينة والطمأنينة. وهنا يستفاد تعدد المعاني وأنها لا تتعارض. (الجوزية، 1437هـ)

3.2.2 / اهتمام الإمام ابن القيم بالإعراب ألفاظ الحديث:

-اهتمام الإمام ابن القيم بضبط حركات الكلمات الإعرابية وأثره:

-لفظت أرمْت

في لفظة أرمت الوارد في حديث فضل يوم الجمعة (السجستاني س.، سنن أبي داود، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم: 1047) يبين الإمام ابن القيم اللفظ الصحيح فيها وأنها تلفظ بفتح الراء وتسكين الميم "أرَمْت" بحذف إحدى الميمين، مدللا على صحة ما ذهب إليه بما ورد في القرآن الكريم من ألفاظ على نفس الشاكلة،كلفظة ظلْت"، ويخَطِّيء الرأي الذي يذهب إلى فتح الراء وتشديد الميم بإدغام الميمين، لأن الإدغام في هذه الحالة يكون فيه التقاء للساكنين على غير حدهما، أو يفضي إلى تحريك آخره مع أنه قد اتصل بما يوجب سكونه. (الجوزية، 1437هـ)

-بيان فساد الوجه الإعرابي لامتناعه لغة ومخالفته رواية الحديث :

ضبط الحركة الإعرابية لألفاظ الحديث وتحديد محلها الإعرابي مهم في قبول الموافق للفظ الحديث ومدلوله والمراد منه، ورد ما يخالفه حتى وإن صح لغويا ورده ابن جني في ما ذهب إليه: ففي قوله ﷺ "فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاةُ أُمِّهِ" (السجستاني س.، سنن أبي داود، باب ما جاء في ذكاة الجنين، رقم: 2827) ذكر ابن القيم أن الحركة الإعرابية للفظة الذكاة الثانية، يرد فيها أقوال منها ما هو صحيح موافق للفظ الحديث ومعناه ومنها ما هو مخالف الرواية والمعنى المراد من الحديث.

وعلى هذا فإن القول الأول يدور حول وجوب رفع لفظ الذكاة أن لكل مبتدأ له خبر مفيد ، وفي قوله ﷺ "فإن ذكاته ذكاة أمه" وجب رفع لفظة الذكاة الثانية على سبيل الإخبار فتكون في محل رفع خبر ولا يصح نصبها لأن المبتدأ يبقى دون خبر وبالتالي لن يفيد معنى. أما في القول الثاني فهو على حالات ثلاث:

الحالة الأولى: نصب لفظة الذكاة الثانية، فيكون ذلك بأن يجعل لفظ الذكاة الأول في تقدير فعل محذوف تقديره يذكى الجنين ذكاة أمه أو" ذكوا الجنين ذكاة أمه، نحو قولهم اضرب زيداً ضرب عمرو، وهذا القول مردود لكونه غير مراد في الحديث

وأما الحالة الثانية: في النصب فهي نصب الجزء الثاني "ذكاة أمه" ورفع الجزء الأول بتقدير ضربُ زيدٍ ضربَ عمروٍ ويكون معناه اضرب زيداً ضربَ عمروٍ فلا يصح في اللغة العربية وهو مخالف لمتن الحديث

وأما الحالة الثالثة: وهي نصب الجزء الأول ذكاة الجنين" ونصب الجزء الثاني "ذكاة أمه"، فمخالف لرواية المحدثين ، كما أنه يمتنع في اللغة لكون مصدر محتاج لفعل يعمل فيه، على تقدير الكلام في الحديث ذكوا ذكاةَ الجنينِ ذكاةَ أمهِ" والمصدر لابد أن يكون نكرة كي يكون الكلام تاما وإلا فهو مفرد لا يجوز تقديره، كما أن سياق يدل على بطلان هذا التقدير كونه جواب عن الجنين الذي يخرج ميتا من بطن أمه وليس حيا فتقدير الإعراب على هذا الوجه ذكوا الجنين ذكاة أمه والصحابة لم يسألوا عن هذا. (الجوزية، 1437هـ)

أما القول الثالث فهو لابن جني قد بين الإمام ابن القيم فساده، وهو على تقدير حذف المضاف بتقدير الكلام " ذكاة الجنينِ مثل ذكاةِ أمهِ"، وهو إعراب ممتنع كذلك لوقوع اللبس فيه، كما أنه خلاف ما يدل عليه الحديث، فالسؤال في الحديث عن أكل جنين الشاة المذبوحة وليس عن ذكاة جنينها فأجابهم الرسول ﷺ بجواز أكلها، حيث يقول: ومعلوم أن هذا الجواب والسؤال لا يطابق "ذكوا الجنين مثل ذكاة أمه"، بل كان الجواب حينئذ: لا تأكلوه إلا أن يخرج حيا، فتذكونه مثل ذكاة أمه، وهذا ضد مدلول الحديث، وبهذا يعلم فساد ما سلكه أبو الفتح ابن جني وغيره في إعراب هذا الحديث.

أما أن يقال: وينصب الثاني على معنى فهذا لا يجوز ، وليس كلاما عربيا إلا إذا نصب الجزءان معا، فتقول: ذكاة الجنين ذكاة أمه، وهذا مع أنه خلاف رواية الناس وأهل الحديث قاطبة، فهو أيضا ممتنع ، فإن المصدر لابد له من فعل يعمل فيه فيؤول التقدير إلى: ذكوا ذكاة الجنين ذكاة أمه، ويصير نظير قولك: "ضربَ زيدٍ ضربَ عمروٍ" بنصبهما، وتقديره: اضرب ضرب زيدٍ ضربَ عمروٍ، وهذا حيث يكون المصدر بدلا من اللفظ بالفعل إذا كان منكرا ويكون الكلام فيه تاما غير ناقص نحو " ضربا زيدا" أي اضرب زيداً. أما بإضافته فلا يصح. (الجوزية، 1437هـ)

–حروف الجر وأثرها في توجيه المعنى

الباء السببية وباء المصاحبة:

في حديث تعذيب الميت ببكاء أهله (السجستاني س.، سنن أبي داود، باب في النوح، رقم: 3129) ينفي الإمام ابن القيم أن تكون الباء للمصاحبة وإنما هي باء السببية أي بسبب بكاء أهله وليس يعذب مع بكاء أهله عليه، وذلك لعدة أسباب: منها أن فهوم الصحابة وعلى رأسهم عائشة كانت على أن اللفظ لا يدل إلا على السببية، بالإضافة إلى أن اللفظ الذي رواه المغيرة مخالف للتأويل بباء المصاحبة. (الجوزية، 1437هـ) وبالتالي رجح الإمام ابن القيم معنى تعذيب الميت بفعل غيره إذا كان له فيه تسبب.

اللام للاختصاص وليس بمعنى "في"

من حروف الجر اللام و قد تعددت معانيها وكثرت فوصلت إلى أربعين معنى عند بعض اللغويين حيث تنوعت معانيها ما بين الاستحقاق والملك والتمليك والتعليل والتبيين والاختصاص الذي هو المعنى الأصلي لها، هذا المعنى الأخير رجح به الإمام ابن القيم حكما فقهيا على آخر، يرى أن اللام في قوله ﷺ " أن تطلق لها النساء" (السجستاني س.، سنن أبي داود، باب في طلاق السنة، رقم: 6179) هي لام للاختصاص بمعنى طلقوهن مستقبلات عدتهن طباقا لقوله تعالى : فطلقوهن لعدتهن" ، وفي القول أنها بمعنى في تفيد الوقت وبالتالي الأقراء هي الأطهار مخالف لما يقرره علماء اللغة، كما أن المعنى لا يستقيم باعتبارها بمعنى "في" (الجوزية، 1437هـ) فقد رد معنى اللام بفي لضابطين: أن ضبطها بفي مخالف لما يقرره علماء اللغة ولا يستقيم المعنى معها، وبالتالي لا يصح معنى الأطهار للأقراء.

خاتمة:

– أهمية التكامل المعرفي في بناء تصور متكامل حول الحديث النبوي من كافة جوانبه الحديثية الفقهية كذلك.

– التحليل اللغوي الدقيق لمعاني الأحاديث يؤدي إلى دقة الأحكام المستنبطة.

–اهتمام الإمام ابن القيم بالجانب اللغوي بكافة جوانبه في الشرح الحديثي.

–أثر الجانب البلاغي و الجانب الإعرابي في توجيه معاني الحديث وفقهه واالاحتجاج بحديث دون الآخر أو معنى دون آخر.

التوصيات:

–ضرورة الاهتمام بأثر التكامل المعرفي ضمن علوم الحديث فيما بينها وفي الشرح الحديثي على وجه الخصوص.

قائمة المصادر والمراجع:

الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني:. (1412هـ). *مفردات غريب القرآن*. دمشق: دار القلم.

الخليل بن أحمد الفراهيدي. (بلا تاريخ). *العين*. مكتبة الهلال.

حمد بن محمد الخطابي. (1402هـ). *غريب الحديث*. دمشق: دار الفكر.

حمد بن محمد الخطابي. (1433هـ). *معالم السنن*. حلب: المطبعة العلمية.

زياد الدغامين. (1434هـ).

زياد الدغامين. (1434هـ). التكامل المعرفي في القرآن الكريم. *المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية*، 3.

زياد الدغامين. (بلا تاريخ). التكامل المعرفي في القرآن الكريم.

عبد الرحمان ابن خلدون. (1984). *تاريخ ابن خلدون*. بيروت: دار القلم.

عقيلة حسين. (1433هـ). التكامل المعرفي في المنظومة التعليمية الجامعية (مقاربة تأصيلية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها). *مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية*، 157.

محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. (1437ه). *تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته*. مكة المكرمة: دار عالم الفوائد.

محمد عوام. (1430ه). *قضية التكامل المعرفي والمنهجي بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية(التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية الأأسس النظرية والشروط التطبيقية)*. دار الحديث الحسنية .

محمود توفيق محمد سعيد. (1432ه). *سبل استنباط المعاني من القرآن والسنة*. القاهرة: مكتبة وهبة.

محمود محمد توفيق سعيد. (1432ه).

References :

al-Ḥusayn ibn Muḥammad al-Rāghib al-Aṣfahānī :. (1412h). mufradāt Gharīb al-Qur'ān. Dimashq : Dār al-Qalam.

al-Khalīl ibn Aḥmad al-Farāhīdī. (bi-lā Tārīkh). al-'Ayn. Maktabat al-Hilāl.

Ḥamad ibn Muḥammad al-Khaṭṭābī. (1402h). Gharīb al-ḥadīth. Dimashq : Dār al-Fikr.

Ḥamad ibn Muḥammad al-Khaṭṭābī. (1433h). Ma'ālim al-sunan. Ḥalab : al-Maṭba'ah al-'Ilmīyah.

Ziyād al-Daghāmīn. (1434h). al-Takāmul al-ma'rifī fī al-Qur'ān al-Karīm. al-Majallah al-Urdunīyah fī al-Dirāsāt al-Islāmīyah, 3.

'Aqīlah Ḥusayn. (1433h). al-Takāmul al-ma'rifī fī al-Manẓūmah al-ta'līmīyah al-Jāmi'īyah (muqārabah ta'ṣīlīyah fī ḍaw' nuṣūṣ al-sharī'ah wa-maqāṣidihā). Majallat al-Buḥūth al-'Ilmīyah wa-al-Dirāsāt al-Islāmīyah, 157.

Muḥammad ibn Abī Bakr Ibn Qayyim al-Jawzīyah. (1437h). Tahdhīb Sunan Abī Dāwūd wa-īḍāḥ 'llh wa-mushkilātuh. Makkah al-Mukarramah : Dār 'Ālam al-Fawā'id.

Muḥammad 'awām. (1430h). Qaḍīyat al-Takāmul al-ma'rifī wālmnhjy bayna al-'Ulūm al-Islāmīyah wa-al-'Ulūm al-Insānīyah (al-Takāmul al-ma'rifī bayna al-'Ulūm al-Islāmīyah al''ss al-naẓarīyah wa-al-shurūṭ al-taṭbīqīyah). Dār al-ḥadīth al-Ḥasanīyah.

Maḥmūd Tawfīq Muḥammad Sa'īd. (1432h). Subul istinbāṭ al-ma'ānī min al-Qur'ān wa-al-sunnah. al-Qāhirah : Maktabat Wahbah.